الجزء السادس

الفصل الأول

انه يوم صيف.. والنهار قائظ.. وسلمى في غرفتها عند القيلولة في غلالـة رقيقة، وهي تتململ على الأريكة.. تفكر في موضوع قصصي، بعد أن ألقت عن كاهلها وأد التعليم، وعادت الى جوها الحبيب تمرح في مروج نفـسها وتـستروح خمائلها وتعب من ينابيعها.. أيا ليت الأيام كلها أيام عطل وساعات فراغ ملهمة!.. فما يتمنى الأديب من عمره، وما يتمنى في جنته أكثر من أن تطوف بـه الأرواح المجنحة فينتفض وكل جارحة فيه تتوقّد، وعبراته تهمي بما طفحت به نفسه ليجسد على الورق أشباح رؤاه!..

كل من في البيت نوم إلاّها وهشام.. وما تسمع من نأمة.. ويدخل هشام على رؤوس أصابعه: "ضيوف يا سلمى، ووجهتهم بيتنا"..

وتذمرت سلمى وهي تلقي بالقلم من يدها: "أفي هذا الوقت، وبغيـر إنـذار مسبق؟ ما أراهم أحسنوا انتخاب الوقت"..

وسمعت طرقة على الباب الخارجي فهتفت سلمى باسـتياء: "إذهـب أنـت وأرشدهم الى غرفة الإستقبال ريثما أتهيأ!"

وما كادت تنزع غلالتها وتلبس حذاءها حتى سمعت ضجة: "ألا تعرفني يـا هشام؟" وتلتها صيحة هشام: "أسرعي يا سلمى ، أسرعي!"

وتوثب قلب سلمى.. يا الهي انه صوتها! وانتزعت أناملها المرتجفـة ثوبـا ارتدته مسرعة..

ودخلت الغرفة.. انها رجاء.. يا للمفاجأة الرائعة!..

لم تدر كيف حفزتها ميعة الشباب لتحملها وتطوف بهـا الغرفـة.. ووقفـت الآنسة صفاء تشهد هذا المنظر الطريف وقد دمعت عيناها..

وهتفت سلمى وقد استفاقت من نشوة اللقاء: "عفوا يـا آنـسة صـفاء لقـد أذهلتماني.. وأظن أنني نسيت أن أسلم عليك".. وراحت تهز يدها بحرارة وتصيح بهشام: "ما بالك مبهوتا.. أيقظ ماما وإخوتك!"..

وتلتفت الى رجاء جذلة سعيدة: "رباه لا أصدق! جعلتها مفاجـأة لـي أيتهـا الشيطانة لتخرجينني عن طوري؟ جعلتني أصدق أنك قادمة آخر الصيف"..

فشع بريق حزين في عيني رجاء وقالت: "انها زيارة.. خمسة عشر يوما فقط وسأعود.."

وأحست سلمى بشيء يضغط قلبها: "أتعودين! أليس برءا تاما؟"..

- لم أتمالك قواي تماما.. وأخشى أن لا يوافقني الهواء البحري هنا..

* * *

وجرى الزورق في عرض البحر يحمل الغبطة والأمل البراق وحب الحياة الغامر.. الشمس يا لروعة الشمس.. لقد سكبت سائل الذهب فوق كل شيء فتبلور ببريق أخاذ.. جرى الزورق المذهب وكأنه يجري في أحلام نسجت من ألف ليلة وليلة.. حتى ذلك البحري المخدد الوجه المعروق اليدين المقدد البشرة لطول ما لفحته الشمس قد لفه الألق بسحر عجيب، وهو يدمدم على ألحان مجذافه الرتيب.. وطفح صدر رجاء بالغبطة.. انها تعود الى الحياة .. لقد انطلقت من أسار الموت وشبحه الرهيب.. انها بين أهلها وأحبائها.. وانطلقت حنجرتها بالغناء.. ياللسعادة! لقد وجدت صوتها.. انها تستطيع أن تطلقه بغير إجهاد كبير.. وحفلت لحظتها بذكرى أماس سعيدة ظنت استردادها محالا.. لقد اتصل الزمن والزورق يجري.. وأفراحها النشوى تنبثق غنوة حلوة.. ولكن صوتا معنفا يصدها:

- أين تحسبين نفسك؟

وانبرت سلمى برقة لتثلم حدة أديب:

- فيم هذا الحرج؟ ليس هناك من يسمعها..

- وهذا الرجل؟ وأشار الى البحري بايماءة!

- انه شيخ فان.. فلا تفسد عليها لحظتها المرحة..

وتستمر رجاء في غنائها فينتهرها بغلظة وجفاء..

- إصمتي من فضلك.. كفى قلة حياء! ألا يكفي أنكما سافرتان؟

فصمتت رجاء تكتتم انفعالاتها وقد أذيت بلهجته، ولكن غلبها الأسى فتألقت بين أهدابها عبرات مذهبة، وأكبت على كتف أختها تبكي..

وأنبت سلمى أخاها مغيظة:

- يجب أن تكون أرقّ احساسا.. ما أندر ما يستطيع انسان أن يسعد غيره، فكيف يبيح لنفسه أن يسمم له لحظات سروره؟..
- ليست الحياة متعة وسرورا!
- لا تكن كمن يبالي بالقشور فيفوته اللباب.. ان النفس كبركان تحتاج الى منافذ صغيرة كي لا تثور.. وليس هناك من مبدأ يحرم أفراح صغيرة لا تسيء الى أحد وتكسب النفس صحة وقوة.. وهتف خالد وقد خشي أن يؤرج بينهما النقاش:
- كفى الآن.. ليس المكان ملائما لهذا!

وعادت رجاء من نزهتها، وقد أرز قلبها بعد دفء، وعلى شفتيها ابتسامة وانية وفي عينيها حلم خائب.. لقد تغير كل شيء بعد خروجهم من فلسطين!

* * *

مضت الأيام كلحن بديع رغم نشوز طفيف.. ولقد حرصت سلمى أن تتغلغل بهجتها الى نفس رجاء حتى اذا ما عادت حملت معها ثروة من ذكريات عطرة.. فلم تترك بقعة رائعة الجمال في البلدة وضواحيها الاّ طوفت واياها فيها.. وكم من فجر ندي أفاقتا مبكرتين لتشهدا يقظته في ظلال أرجوانية ساحرة، وأصيل ودعتا فيه الشمس الغاربة مؤتلقة المحيا، كرة من لهب يحضنها البحر البرود.. وكم من ليلة باهرة في رحبات المساء الحالم، جلستا في كنف خرنوبة وارفة على التلة الضاحكة وقد تناهى الى أسماعهما موسيقى مرحة من المقهى المجاور، أو اتخذتا مجلسهما على شاطئ البحر تمتعان النظر بتوثب الموجات حول صخرة كبيرة ناتئة اتصلت بالشاطئ بجسر خشبي وقد تناهى الى أسماعهما خرير الموج في أنشودته الأزلية، يصفق للموجات كأنها حوريات بيضاء ترقص في ضوء القمر ولا تمل من الرقص، وترن صدى ضحكاتها اللاهية في قبة الليل الطلق..

لقد أغرمت رجاء بالبحر وكأنما فيه انطلاق لا نهائي لروحها ومشاعرها التي أرهقها الأسر.. يغمر قلبها بغبطة لا تحد يجذبها أبدا اليه..

فاذا ما أثقل الكرى أجفانهما نامتا في سريرن متجاورين.. وعانقت رجاء يد أختها كأنما لتطمئن أنها ليست في حلم، فاذا أغفت جذبت سـلمى يـدها الخـدرة بسكون..

وكثيرا ما مرت ساعات وهما في غفلة عن الوقت تتحدثان.. وكانت رجـاء تفيض في ذكر الدكتور وتتحدث عنه باهتمام كبير، ولا تترك شاردة وواردة مـن حركاته وسكناته وتصرفاته، والحوارات التي جرت معـه الاّ وتـشبعها تحلـيلا وتفصيلا تحاول أن تستجلي غوامضها، وعيناها البراقتان تومضان بمـزيج مـن لهب الحمى والعاطفة المتيقظة.. وكانت سلمى تبتسم بارتياح.. ان الإهتمام دليـل الإعجاب.. إنه يعني لها الكثير.. انه قلق الحب في بداياته.. والحب سيعزز آصرة أختها بالحياة.. انه عاطفة منقذة شافية.. وليكن ما يكون بعـد أن تمتلـك رجـاء قواها..

مضت الأيام كلحن بديع.. وآن لرجاء أن تعود.. رجت سلمى الطبيب برسالة أن يسمح لرجاء بأسبوعين آخرين فلم يرفض.. وها هي الأيام تنقضي، ولا يمكن لسرير رجاء أن يبقى شاغرا أطول من هذه المدة..

عادوا من زيارة عاجلة الى مصيف صلنفة بعد الظهر، وكانت رجاء تعبـة نوعا ما، فخلعت ثيابها واستلقت على أريكة في الردهة.. أما سلمى فراحت تكوي ثياب أختها وتفردها على الكراسي لتعدها لها في حقيبة.. ولقد انتهزت الأم فرصة غياب أبنائها لتطرش جناح المطبخ والحمام، وأخذت سعاد تساعدها علـى إعـادة الأدوات الى أمكنتها.. أما أديب فلقد انتهز كركبة الردهة ليرتّب أدراجه وخزانـة الكتب ويرمي بالأوراق الممزقة في كومة على الأرض..

وضحكت رجاء: "كيف لو زاركم أحد وأنتم على هذه الفوضى؟"..

فأجابتها سلمى باسمة: "لا يأتينا أحد دون موعد.. فان كنت ضجرة فـاذهبي مع خالد الى طريق الجبل، وفي ساعة نكون قد انتهينا من كل شيء.."

- حسنا أنا لا أطيق الفوضى.. ولكنني تعبة.. فاعطني كتابا يا أديب لأتسلى به..
- أليس من الأفضل أن ترتاحي في فراشك؟

- حسنا.. أعطني كتابا يا أديب لأقرأه في سريري.. وأنظر من بالباب!

كان باب المنزل منفرجا قليلا، وسمعت نقرات خفيفة، فخرج أديب ليرى من الطارق، وأخذ يرحب بالقادمين بحرارته المعهودة..

وهتفت رجاء وقد شحب وجهها:

- انه هو! انه الدكتور ووالدته.. وهذا صوت الآنسة بشرى!

وأسرعت الى غرفة النوم مضطربة وتبعتها سلمى لترى ما بهـا.. كانـت رجاء منفعلة الى أبعد حدود الإنفعال فساعدتها سلمى في تـسريح شـعرها وإلباسها.. وأما رجاء فلقد استبد بها الخجل والإرتباك لأن الـدكتور وجـد المنزل بهذه الصورة من الفوضى.. فكانت سلمى تضحك مـن تفاهـة مـا يزعجها..

- سأخبره الأمر.. بل سأناديه ليرى ما ألم بك لأنه شاهد بيتنا "المكركب"..
- أفّ! أنت لا تعلمين ياسلمى كم هو نقّاد لهذه الأمور.. كنا نتحـدث عـن كتاب في بيتي...
- الحق عليه! لأنه لم يخطرنا بقدومه لنزين البيت بالأعلام لاستقباله.. أمـا وقد فاجأنا على هذه الحال، فالأحرى به أن يساعدنا على إعادة الترتيـب الى البيت.. أو يتغاضى عن كركبتنا.. ليش زعلانة؟
- بالله يا سلمى.. كفاك سخرية!.. ليس جميلا شعري بهذا الـشكل إرفعـي الغرة الى أعلى أو اجعليها الى الجانب.. طالت منذ قصـصتها.. لمـاذا جاءت الآنسة بشرى معه؟ أريد أن أفهم.. لماذا؟
- أيزعجك قدومها؟
- لاأدري.. ولكن لم تأتي معه؟ أعصابي مهتاجة.. لا أريد أن أدخل..
- بل يجب أن تدخلي.. لا شك أنه جاء ليراك!..
- انني لم أخبرك ياسلمى.. أنت لا تعلمين..
- بل أعلم.. ما كتبته لي في رسالتك الأخيرة كاف لأعلم كل شيء.. ما بك يارجاء؟
- آه ! انني سخيفة.. مابي من شيء.. لست أدري لم أتألم..

- ولكنني أدري.. انها مشاعر طبيعية تهولها لك حساسية المرض..

ودهش الطبيب للتغير الذي طرأ على رجاء، وابتسم لسلمى قائلا:

- لقد استطعت أن تفعلي لها في شهر ما لم أستطعه في شهور..
- أحسب أن السبب هو شعور الحرية.. فالأمر نفسي كما تـرى.. ولعـل تغيير الهواء ذو أثر فعال.. انها فرحة! أتعلم أنها كسبت أربعة كيلو وزنا بهذه المدة الوجيزة؟ ولكنني خسرت مثلها قلقا أن أخطئ من حيث أريـد الخير..
- أنت لا تبالين بنفسك..
- لا تخش علي.. ان غريزة الحياة قوية في نفـسي.. وأنـا أومـن أننـي سأعيش طويلا بكامل قوتي حتى أنجز كل ما يدور في خاطري!..
- هذا عظيم.. ليت لرجاء مثل هذا التفاؤل.. ألا تفكرين بالعودة يا رجاء؟
- بلى تهيأت للعودة في الغد، وحجزنا أماكن للسفر..
- جئت لآخذك معي.. أطلت غيابك.. وأردفت والدة الدكتور تحدث والـدة سلمى، وهي سيدة رزينة جليلة الطلعة تميل الى البدانة وتشبه الـدكتور بعينيها الزرقاوين الصافيتين وبشرتها الشفافة المستنيرة وطولها الفـارع، وتتلفّع بملاءة مزمومة:
- تركنا دمشق هذا الصباح.. قطعنا المسافة في ست ساعات.. وعارضتها الآنسة بشرى:
- أحسب أننا قطعنا المسافة في أقلّ من هذه المدة يا امرأة عمـي.. متـى وصلنا الى الفندق؟
- في الواحدة.. الحق معك.. في خمس ساعات..
- ان سيارتنا عظيمة.. لم تريها يا سلمى.. اشتراها راشد هذا العام..

ونظرت رجاء الى سلمى نظرة معنوية كأنما تقول: "هل تـسمعين؟ امـرأة عمي، سيارتنا، راشد، ماذا تعني؟ أفهمت يا سـلمى؟ اننـي لا أحتمـل.. لا أحتمل يا أختاه.. انني أتعذب!.."

وأجابتها سلمى ببسمة مدركة ولمحة عين، وهي تهنـئ الـدكتور بـسيارته الجديدة.. وراحوا يتجاذبون حديثا عابرا، ولما عـرف الـدكتور أن رجـاء عادت لتوها من مصيف صلنفة، طرأت له فكرة زيـارة صـلنفة وكـسب والفرناق ما دام أصبح قريبا منها.. وافقت الأم ولكن الآنسة بشرى اعترضت بقولها:

- والمستشفى! ماذا يحدث في غيابنا؟

- يوم آخر في إجازتنا.. ولن يحدث شيء!..

كانت رجاء صامتة طوال الوقت، ولكن نظرة من سلمى اليها جعلتها تـدرك أنها تكبت شعورا يرهدها وأنها على وشك الإغماء..

وما أن ذهبوا حتى دخلت رجاء الى غرفتها، وأكبت على الفـراش تبكـي.. فتركتها سلمى تسري عن نفسها دون أن تنبس بكلمة.. ولكن تلك الظـواهر أقلقتها.. لقد فهمت الآن لم لم تتحسن صحة رجاء هناك كمـا يجـب رغـم العناية الكبيرة التي يبذلها الطبيب ورغم أحدث الأدوية التي تعالج بها.. انها تعيش في نفسية قلقة هائجة تنزف قوتها.. وهي نفسها لا تدري ما بها.. انها غارقة في مشاعر لا تعلم كنهها.. ولعلها تتساءل الآن: "ماهذا الذي يرعـد روحي؟ أهو الحب؟ أهي الغيرة؟ ولكن فيم أغار؟ هل يمكن أن أقارن نفسي بها؟.. كلا.. اذن لم أتألم؟ لم أشعر بقلبي يتمزق؟ يا لي من سخيفة!"

وصدقت فراسة سلمى.. كفكفت رجاء دموعها فجأة وكان أول ما تفوهت به:

- "يالي من سخيفة!"

وبدا في نظرات سلمى تفكير عميق.. حل لهذه المشكلة التي أدركتها في هذه اللحظة.. ان الآنسة بشرى لا تكفّ عن تحطيم أعـصاب رجـاء بمختلـف الوسائل.. انها تجر بها الى الهاوية بإثارتها كل لحظة.. وتجد مـن عملهـا كرئيسة ممرضات، ما يخول لها أن تفرض سلطانها مما لا تحتمله رجـاء، فليست المشادة الأخيرة التي وقعت بينها وبين رجاء مما يقع مـرة وينتهـي أمره.. انه عراك دائم لا هوادة فيه ينفث سمومه برجاء وهي على حالها من الضعف والعجز عن رد الإساءات.. والآنسة بشرى لا تفكر الاّ أنها فتاة يكاد

يفوتها قطار الزواج وأمامها صيد ثمين.. فماذا يهمها أن تطوح بألف حيـاة كحياة رجاء في سبيل مأربها؟ لقد فهمت سلمى الثورة التي تـضطرم فـي أعماق رجاء فتكبتها.. تكبتها وتقيدها بأطواق من حديد.. انها تتعذب وتبـث شجنها للوسادة تبللها بدموعها وتودعها آهاتهاالمختنقة اذ يتهالك عليها رأسها الصغير حتى لا تشعر سلمى بشقائها فيغيم بالأسى قلبها عليها.. انها لا تشكو مهما يكون من شأنها.. فان شكت يوما فلتنفي ما بها في مرة أخرى وتهـون شأنه..

وما كانت سلمى لتفكّر بالتخفيف عنها لو كانت في غير حالهـا.. وتحرمهـا دروس الألم وتجاربه الزاخرة.. أما اليوم فالألم يهددها بالفناء!..

فهمت سلمى وهي تشاهد تحبب الآنسة بشرى الى الدكتور ووالدته، وتلمـح الإنفعالات التي بدت على وجه رجاء الصريح، كم كانت تعاني في المصح، وأي خطر كامن في عودتها اليه.. وهتفت سلمى لنفسها:

- رباه! أكل ما أفعله، أكل ما أنفقه من قلبي وجهـدي وصـحتي لتتحـسن رجاء قيراطا، تأتي هذه الحمقاء وتحطّمه في لحظة أنانية!.. أحياة ثمينـة لا يعلم الاّ الله، أية قوى خلاّقة مبدعة تكمن فيها تضيع هكـذا بسلـسلة مثبطات وتفاهات؟..

وأحست سلمى بالحقد يملأ قلبها.. ليس حقدا على أشخاص.. فالآنسة بشرى لا تستحق أن تثير حقد سلمى، بل رثاءها.. فما هي الاّ فتاة محدودة جاهلـة، بل لعلّ مظهرها يوحي بأنها طيبة القلب حين لا تثار.. بل علـى الظـروف التي تأبى على سلمى أن تكون قرب رجاء تتيح لها العناية الكافيـة والجـو النفسي الملائم الذي يساعدها على الشفاء.. انهـا تـرى بعينيهـا العوامـل المضادة تسعى جميعها لإهلاك الفتاة دون أن تقوى على إنقاذها..

وتنهدت سلمى فنظرت اليها رجاء مبتسمة وعيناها لازالتا خضلتين:

- لعلّك تستغربين بكائي.. وأنا نفسي لم أدر لم بكيت.. لعلي كنت متعبة!..

ونظرت سلمى في عينيها لتنفذ الى أعماقها وسألتها:

- أتفضلين أن تبقي هنا؟

وهتفت وقد أشرق وجهها:

- وهل في هذا شك؟
- اذن نلغي قرار السفر.. ألن تندمي؟
- أبدا يا سلمى.. ما كنت أود العودة الاّ خوفا أن يكون وجودي بينكم غير مرغوب فيه.. وضمتها سلمى الى صدرها:
- كيف تقولين هذا؟
- ألا يجب أن يكون الإنسان حذرا؟ أشعر أحيانا أنني أصبحت غريبة..
- غريبة في بيتك؟ ما هذا الكلام يارجاء؟.. فكرت بالأمر، فاذا كان الدكتور سيذهب في بعثة بعد بضعة أشهر كما أخبرتني.. فسيكون هـذا تجربـة قاسية بالنسبة اليك لأنك اعتدت عليه.. ولا تدري كيف يكون من يليـه.. وأخشى أن لا تلقي منه العناية الكافية.. ولقد تحسنت هذا الشهر تحـسنا يغري ببقائك.. ومشكلة التمريض ليست عسيرة على الحل.. نبقى علـى اتصال بالدكتور نستشيره في خطواتنا.. وأنا واثقة أنك ستشفين سريعا ان بقيت على هذا المنوال في تحسنك حين يذهب الدكتور في بعثة، وحـين يعود منها ستكونين له مفاجأة خطيرة..

وسألت رجاء بدهشة وسرور:

- ولم تكون خطيرة؟ وابتسمت سلمى:
- خطيرة! طبعا خطيرة.. سيرى فيك فتاة مدهشة.. فتاة مكتملة الجمـال لا يدانيك أحد في صفاتك..
- لا يا سلمى.. ينقصني الكثير.. ولكنني سأتعلم من أخطـائي.. وسـأقوي شخصيتي..انها الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أحد أن يـسلبني ايـاه.. أتظنين يا سلمى أنه..؟ ان الآنسة بشرى ستلاحقه دون هوادة حتى ترغمه على الزواج منها في النهاية.. وضحكت سلمى:
- وماذا في الأمر؟
- لا شيء يا سلمى.. ولكنها لا تستحقه!.. وضحكت سلمى:

- وهل كل الناس يتزوجون من يستحقون؟ على كل حال لا أظنـه يفكـر بالزواج وهو مقبل على بعثة.. حسنا يفعل أن يعجل سفره..
- انني أعلم رأيه فيها.. ولكنه ليس من النوع الحسابي كما وصف نفـسه.. انني أعرفه.. وضحكت سلمى:
- انني أتصور الأمر ينتهي على هذا الشكل.. سيعود من البعثـة، وأنـت ستشفين وتتطورين فيغرم بك ولكنك حينذاك تغيرين رأيـك.. انـه لـن يعجبك.. وهتفت رجاء بحنق ضاحك:
- ماذا تقولين يا سلمى؟
- الأمر بسيط يا رجاء.. انه حين يعود يكون عمره ضعف عمرك.. وأنت تفوقيني موهبة، ولو أنك تنسين فارق السن حين تقارنيني بنفسك.. وأنـا مثلا لا تستطيع شخصية الدكتور مع كل نبله وخلقه الرفيع أن ترضـي طموحي الذي يتعارض وحياة هادئة مستقرة.. حسنا فكيف تفعلين؟.. فان لم يكن محظوظا ليخطفك قبل أن تندمي، فسيندم هو أنك لم تخطفيـه!.. وضحكت رجاء:
- انك لا تكفين عن المزاح حتى في أحرج الأوقات.. أواه كم أنا بحاجة الى روحك المرحة!

وهكذا اطمأنت سلمى الى خط الرجعة فيما لو حمق الـدكتور ووقـع فـي الشباك.. وأردفت متهللة:

- أتعلمين أننا سنقضي وقتا عظيما.. سأبدأ في تأليف رواية طويلـة.. لـن أستطيع الاّ أن أفعل وأنت قربي تحثينني كطفلة كسولة.. وسأكون بحاجة الى آرائك وملاحظاتك.. فان لقيت إعجابك علمت أنني قمت بعمل عظيم ونجحت فيه نجاحا باهرا.. وضمت رجاء أختها فرحة:
- كم يسعدني أن أفعل شيئا له قيمة.. أواه يا سلمى ان أقتل ما يقتلنـي أن أشعر أن حياتي تذهب تافهة مهدرة هكذا..

* * *